

الأمم الياس

« بقية المنشور على صفحة ٦ »

لها رفيقة فتاة من أهل الاقاليم ولدت في اسرة شريفة ولكن مولدها لم يكن شرعيا ، وكانت هذه الفتاة مدموازيل لسبيناس ذكية بارعة الذكاء . حساسة قوية الحس ، مثقفة واسعة الثقافة ، وكانت المودة بينها وبين سيدتها قوية متينة ، دامت عشر سنين لم يكدر صفوها مكدر . ثم لاحظت صاحبة الدار ان زوارها أو فريقا منهم اذا انصرفوا عنها لم يخرجوا ، وانما أتوا سهرهم عند الفتاة ، فغاظها ذلك وكانت القطيعة بين الصديقتين ، ولكنها لم تكن قطيعة مألوفة إنما كانت حدثا من أحداث العصر في باريس ، انقسم له الادباء والفلاسفة انقساماً عظيماً ، تعصب بعضهم للشيخة وتعصب بعضهم للفتاة ، وكانت كثرة الفلاسفة وعلى رأسهم دالمبير d'Alembert من أنصار الفتاة وكانت الارستقراطية المعتدلة والمحافضة من أنصار الشيخة .

ثم استأنفت الحياة المنظمة طريقها عند صاحبنا ، واتخذت الفتاة لها ناديا أو صالونا أدبيا واشتدت المنافسة بين هاتين المرأتين . وصاحبنا الآن في الثامنة والستين من عمرها قد فقدت البصر منذ ثمان عشر عاما ، وعظمت مكاتها في أوروبا حتى لم يكن عظيم من الاوربيين يزور باريس الا رأى حقا عليه نفسه ولمكاته أن يلقاها ويتحدث اليها . وفي اكتوبر من هذه السنة ١٧٦٥ زار باريس رجل من عظماء الانجليز هو هوراس ولبول Horace Walpole . كان أبوه روبرت ولبول Robert Walpole وزيرا وكان هو عضوا في البرلمان . فلما مات أبوه ترك السياسة ، وانصرف الى الادب والفن ، وكان في الحسنيين من عمره . ولم ير هذا الرجل بدا من أن يزور صاحبنا هذه ويغشى ناديا كما كان يغشى أندية الادب والسياسة كلها في باريس . فلما رأى هذه الشيخة أنكرها ، وكتب الى صديق له يصفها بأنها عجوز عمياء فاجرة العقل . على أن وقتا قصيرا لم يمض على هذه الزبارة حتى تغير الامر بين هذا الانجليزى وهذه الفرنسية ، وتكررت الزيارة فوقع الانجليزى من نفس هذه المرأة موقعا غريبا رد اليها الشباب بل رد اليها الصبي فاجبته . وأنا أعنى بهذه الكلمة معناها . احبته وقد أشرفت على السبعين ولم يرفض هو هذا الحب . ومن المحقق انه لم يلق هذا الحب بمثله ، ولكنه أضمر لهذه المرأة مودة قوية صادقة لم تغيرها الايام وظهر بها اعجابا لاحد له . واتصلت أسباب المودة والحب بينهما ما أقام في باريس ، فلما رجع الى لندرة اتصلت بينهما الكتابة ،

مليزاند — أتشرب جرعة من الماء ؟

جولو — ليس بي ظمأ . شكرا لك

مليزاند — أتريد مصدغة أخرى ؟ ... أرى على هذه نقطة

صغيرة من الدم

جولو — كلا . لست في حاجة الى مصدغة أخرى

مليزاند — أصدقني القول يا جولو ، هل تسألم من جراحتك كثيرا ؟

جولو — كلا . كلا . ليست هذه أول مرة تصيبني فيها الجراح ... خلقت من حديد ودم

مليزاند — أغمض عينيك وتملق النوم . سأقضى الليل كله بجوارك

جولو — جنبي نفسك التعب فلست في حاجة إلى شيء . سأنام كالطفل الوديع ... ماذا جرى ؟ مليزاند ! لماذا تبكين دفعة واحدة

مليزاند — (تستخرط في البكاء) إني ... إني مريضة

جولو — مريضة ؟ ماذا بك ؟

مليزاند — لأدري ... الحياة هنا تغمز على المرض ..

أثرت أن أقول لك ذلك اليوم ... لست بسعيدة هنا

جولو — ماذا حدث ؟ هل أساء اليك أحد ؟

مليزاند — كلا . ليس هذا ما أعنيه ...

جولو — إنك تخفين عني شيئا في أغوار نفسك . أنفضي إلى جملة حالك . من الذي يكدر عليك صفو حياتك ؟ أهو الملك ، أم أمي أم أخى بلباس ؟

مليزاند — لا أحد يكدر على صفو الحياة . إنك لا تستطيع إدراك نفسي ... شيء أقوى مني ...

جولو — لا تسلمى زمام نفسك إلى أوهام تبليبل بالك وتشقيك . ماذا تريد أن أفعل ؟ هل عدت طفلة غرة تتلاعب بلبك أفكار الخيال ؟ هل زهدت في زوجك ورغبت في هجره ؟ مليزاند — آوه كلا . ليس هذا هو ... أتمنى أن أذهب معك ... لا أريد أن أعيش هنا بعد اليوم ... أشعر بأن عمري قصير ولن أستمتع بالحياة طويلا !

جولو — ولكني أريد أن أقف على علة ذلك ... سيعتقد الناس إذا سمعوا قولك ، أنك فقدت رشك ، أو أنك طفلة يغمر بها حلم ساذج . تكلمى أهو بلباس الذي ... يقينى أنه لا يتحدث اليك كثيرا

(يتبع)

وكان يأتي الى باريس من حين الى حين ليرى حبيبته أو ليرى عاشقته ، أو ليرى يتيمة ، كما كانت تسمى نفسها ، فقد كانت تسمى نفسها يتيمة وتسميه هو وصيا . وكان هو يسميها ابنته الصغيرة . وكان الحنان بينهما كما أقوى ما عرف الناس من الحنان بين المحبين . وكانت نتيجة هذا الحب أربع مجلدات نشرت بعد موتها وفيها ثمانمائة من الرسائل التي اتصلت بينهما . وهي آيات من آيات الادب الفرنسي لا أكثر ولا أقل ، فيها تصوير لهذه العواطف النادرة ، الشاذة ، التي لم يألفها الناس والتي تملأ قلوبهم مع ذلك رحمة وبراً ، وإشفاقاً ، وعظفاً . ومارأيت في هذه الضريرة التي نيفت على السبعين والتي تكتب لصاحبها رسائل حب وغرام كرسائل الفتيات اللاتي لم يتجاوزن العشرين . على أن صاحبها كان انجليزيا ، ومعنى ذلك أنه كان يخاف السخرية ، والمزاح ، وكانت الرقابة مضروبة على الرسائل في انجلترا ذلك الوقت . فكان صاحبنا مروعا دائما يخشى أن تفرض رسائل صاحبه ، وان يعرف ما فيها من هذا الحب الغريب ، فيتندر الناس به في القصر وفي الاندية . فكان يرد صاحبه الى القصد في تصوير عواطفها الحارة ، وكانت هي تخاضمه في ذلك ، وكان الامر يفسد بينهما أحيانا ، ولكنه لا يلبث أن يعود الى خير ما كان . وانقطعت رسائله عنها مرة فكتبت اليه : يظهر انك لا تريد أن تظهرني من أمرك على شيء ، فاحذر أنها الوحى أن تصبر على ذلك فاني خليفة ان فعلت أن ارسل اليك سكرتيرى وان أكلفه الاسراع الى لندرة وأمره ان يلزمك وان يرسل الى بأبنائك ، وأن يعلن الى الناس جميعا وفي كل مكان أني يتيمة ، وانك وصي ، وانى أحبك ، وان يهيا لي عندك مكانا فالحق به ، وأعلن الى الناس جميعا ما بيننا ، لا أخاف فضيحة مهما تكن ، فاختر لنفسك بين الفضيحة والكتابة الى . ولعلها كانت في بعض الوقت تدعن وتطيع ، وترد نفسها الى القصد ثم ثور فترسل نفسها على سجيته وتطلق حبها صريحا حراً . وكذلك عاشت هذه المرأة خمسة عشر عاما ، استرد قلبها فيها شابا به كله وتبينت هي وتبين هو وتبين الناس في عصرهما ، ومن بعدهما ان ما اندفعت فيه هذه المرأة من العبث واللغو ، ومن المجون والفساد ، ثم من الجحد الخصب والنشاط المنتج ، كل ذلك لم يكن الاضيقا بالحياة وافتقاراً لهذا النور الذي يحجبها الى النفس . وهو الحب ، ومصارعة لهذا العدو الفاتك وهو اليأس . فلما بلغت السبعين أو كادت تبلغها ظفرت بالحب عند هذا الانجليزى ، وظفرت به من غير طريقه كما كان يقول المعاصرون ، فان العيون هي أوضح طرق الحب الى النفوس ، ولكن الحب قد يسلك الى النفوس طريق الآذان كما قال شاعرنا القديم . وأكبر

الظن أن صوت هذا الانجليزى هو الذى حمل الحب الى نفس هذه الفرنسية فثبته فيها تثبيتا .

وفي سنة ١٧٨٠ ماتت هذه المرأة وكتبت قبل موتها بقليل جدا الى صاحبها كتابا تنبؤه فيه بقرب آخرتها . وتنبؤه بانها لا تأسف لفراق الحياة ، لأنها لا ترى في الحياة خيرا بعد أن كتب اليها أن لا تلقاه . وتنصح له بأن يستمتع بالحياة ما استطاع ، وتنبؤه بأنه سيحزن عليها ، فليس من اليسير أن يتعزى الناس عن كان يؤثرهم بالحب . فلما أتمت املاء كتابها هم سكرتيرها الشيخ أن يقرأه عليها كعادته ، فلم يستطع لأنه كان يقطع قراءته بالبكاء . هنالك احست هذه المرأة المتشائمة الياسة التي اسرفت في سوء الظن بالناس ؛ احست أن هذا السكرتير لم يكن يعمل عندها ليعيش . فقالت له بصوت خافت فيه نغمة الموت ، وفيه مع ذلك نغمة الرضى والغبطة أكنت تحبني اذا ؟

هذه صورة من صور هذه المرأة وهي من غير شك أشد هذه الصور اتصالا بالنفوس ، وتأثيرا في القلوب . ولكن لهذه المرأة صورة أخرى عظيمة الخطر جدا في حياة الأدب الفرنسي . فقد كانت ناقدة ، ولها في أدباء فرنسا ، وفي كبار أدبائها خاصة آراء قيمة تثير الإعجاب لرقتها ولبراعة الصيغ التي كانت تعلن فيها . كانت تؤثر فولتير ، وكانت تضيق بروسو فانظر الى هذه الجملة البديعة التي تنقد فيها أسلوب جان جاك : « ان لروسو حظا من الوضوح ، ولكنه وضوح البرق ، وله حظ من الحرارة ولكنها حرارة الحمى . » واتصلت هذه المرأة بأصحاب السياسة ، واتصلت بالعظماء والأشراف وكانت منهم ، وقد كتبت اليهم وتلقت منهم الكتب وقد صورتهم وصوروها ، فهذه ناحية أخرى من حياتها لها أثرها في توضيح التاريخ السياسى والاجتماعى لفرنسا في القرن الثامن عشر وقبل الثورة الفرنسية الكبرى .

وبعد فعمل أحسن ما كتب عن هذه المرأة الى الآن فصلان كتبهما سانت بوف في أحاديث الاثنين تستطيع أن تقرأ أحدهما في الجزء الأول ، وثانيهما في الجزء الرابع عشر ، فان أردت الايجاز المقنع فاقرا الفصل الذى نشر عنها في «مجلة العالمين» أول أغسطس ، فان أبيت أن تتكلف القراءة أو تشق على نفسك بالبحث فقدّر هذا الوصف الذى كان يصفها به فولتير ، وفكر فيه فانه يعطيك منها صورة قوية ، تملأ نفسك رحمة واعجابا . فقد كان فولتير يسميها : « الضريرة المبصرة » .

طه حسين